الآثار المعمارية في فلسطين خلال العصر العباسي الأول (132-232هـ/750-847م) من خلال المصادر التاريخيّة والأثريّة

الباحث. لؤي محمد أبو السعود

قسم السياحة والآثار/ كلية العلوم الإنسانية/ جامعة النجاح الوطنية/ نابلس/ فلسطين

loayabualsaud@najah.edu

الباحث. عبد الرحمن المغربي

جامعة القدس المفتوحة/ فرع نابلس/ فلسطين

Architectural Impacts in Palestine during the First Abbasid Period (132-232 AH\ 750-847M) through historical and archaeological sources

Researcher. LOUAY MOHAMED ABU ALSAUD

Faculty of Humanities\ An-Najah National University\ Nablus\ Palestine

loayabualsaud@najah.edu

Researcher. Abdul Rahman Al Maghrabi

Al-Quds Open University\ Nablus Branch\ Palestine

amughrabi@qou.edu

Abstract

The aim of this research is to conduct a comprehensive documentary study of architecture in Palestine during the first Abbasid rule (132-232 / 750-847). The authors of this research depends on the collecting of the descriptive data and historical information of this study on many sources and references. In addition to fieldwork, which included taking dimensions of buildings and the designation of sites and buildings on the map of Palestine and the preparation of a table and taking photographs. As well as reading the founding inscriptions of the Dome of the Rock and the inscription of Al-Ramlah. In addition to study of the books of the Arabs and Muslims early such as: Baladri, Yacoubi, Shehab Al Maqdesi, Al tabari etc. And the most important reference the book of Creswell on early Islamic architecture. Finally, reports of archaeological excavations and their results were conducted at sites dating back to the time period of this research.

The research is consist of several objects such as the Religious buildings: Al-Aqsa Mosque, the Dome of the Rock, the Ibrahimi Mosque in Hebron, and Umm al-Rasas Church; public facilities such as the Ramleh Tank; private buildings such as the Abbasid Palace Tell Taanak.

Key Words: Abbasid Architecture, Inscription in the Dome of the Rock, Pool of Arches, The City of Al Ramlah, The Abbasid Palace, Tell Taanack, The Mosque of Al Ibrahimi in Hebron.

الملخص:

الهدف من هذا البحث إجراء دراسة توثيقيّة شاملة للعمارة في فلسطين خلال الحكم العباسي الأول (132-232هـ/750-847م). وقد اعتمد الباحثان في جمع البيانات الوصفية والمعلومات التاريخية لهذه الدراسة على العديد من المصادر والمراجع. إضافة إلى الزيارات الميدانية التي اشتملت على التصوير وأخذ أبعاد المباني وتعيين المواقع والمباني على خارطة فلسطين واعداد جدول خاص بها. وكذلك قراءة النقوش التأسيسية لقبة الصخرة وصهريج الرملة. إضافة إلى اعتماد الباحثين على كتب العرب والمسلمين الأوائل من أمثال: البلاذري، اليعقوبي، الشهاب المقدسي، الطبري، وغيرهم كثيرون، وكتاب كريزويل الخاص بالعمارة الإسلامية المبكرة. وأخيراً، تقارير التنقيبات الآثارية ونتائجها التي أجريت في المواقع التي تعود إلى الفترة الزمنية الخاصة بهذا البحث.

ويتكون البحث من مجموعة من المحاور وتتلخص في مصادر الدراسة ومراجعتها؛ المباني الدينية مثل: المساجد والكنائس: المسجد الأقصى وقبة الصخرة والحرم الإبراهيمي في الخليل، وكنيسة أم الرصاص في المملكة الأردنية الهاشمية؛ المرافق العامة مثل: صهريج الرملة، والمباني الخاصة مثل: القصر العباسي في تل تعنك.

الكلمات المفتاحية: عمارة عباسيّة، نقش كتابي تأسيسي في قبة الصخرة، بئر العِنيزيّة، مدينة الرملة، القصور العباسية، تل تعنك، الحرم الإبراهيمي في الخليل.

مشكلة الدراسة وخلفياتها

لهذه الدراسة أهداف عديدة؛ الأوّل: البحث في أسباب ندرة العمارة العباسية في فلسطين مقارنة مع بقية العصور الإسلامية المختلفة. علماً أنَّ المعلومات المتوفرة حول العمارة العباسية في فلسطين جاءت متفرقة، ولا يوجد هناك أي بحث يتناول آثار هذه الفترة بشكل منفرد. الثانيّ: توثيق المكتشفات الأثرية التي تعود إلى العصر العباسي الأول وتحليلها وتفسيرها من أجل توضيح صورة الحضارة العباسية في فلسطين من خلال الآثار التي خلفوها في المواقع التي سكنوها وقاموا ببنائها وتعميرها. الثالث: تفسير المكتشفات الآثارية المعمارية وتحليلها.

تتعرض الآثار الإسلامية في فلسطين– بشكل عام– إلى العديد من المشكلات، والّتي تؤدّي بشكل متزايد إلى إلحاق الضرر بها، ومن أهمّ هذه المشكلات:

أولاً: تدمير الآثار الإسلامية من قبل سلطات الاحتلال الإسرائيلي بشكل ممنهج، وبخاصة في مدينة القدس، بهدف محو وطمس الثقافة العربية الإسلامية.

ثانياً: هناك بعض المستشرقين الذين تناولوا دراسة الآثار الإسلامية وكانت تفسيراتهم بعيدة عن الحقيقة العلمية، بهدف تشويه التاريخ الإسلامي، أو بسبب جهلهم بالدين الإسلامي.

ثالثاً: تأخر علم الآثار الإسلامي عن بقية التخصصات الأخرى في علم الآثار.

رابعاً: تدمير العمارة العباسية لأسباب كثيرة منها: عوامل طبيعية مثل: الزلازل، وبشرية مثل: قلة العناية والإهتمام بها.

خامساً:استكشافالإرثالمعماريوالعمرانيالذيخلفتهتلكالفترة،ومامدىتحقيقه لوظيفته؟ وأثر العوامل عليه.

المقدمة:

قضت فلسطين حقبتها التاريخية في ظل الحكم الأموي (41–132هـ/661–750م) وهي تزخر بالمنشآت العمرانية والمرافق العامة والضياع التي كان للخلفاء والأمراء الأمويين الفضل الأكبر في إنشائها، وقد تعددت تلك المنشآت وشملت مناطق مختلفة من فلسطين.

ومع أن المصادر أسهمت في ذكر ما حل بدمشق والشام عموماً من تخريب وهدم على يد الجيش العباسي في مرحلة السيطرة عليها ومطاردة مروان بن محمد آخر خلفاء بني أميّة، إلاّ أنّ الباحث لا يجد مثل هذه الإشارات فيما يتعلق بفلسطين، وربما يعود ذلك لعدم مقاومة أهل فلسطين للجيش العباسي، فضلاً عن انقلابهم على مروان بن محمد.

وعليه، يمكن القول إن العباسيين قد ورثوا جند[1] فلسطين مزدهر العمران والمرافق كما خلفه الأمويون، ولذلك نجد أن من الإجراءات التي اتخذوها في المرحلة الأولى من سيطرتهم على فلسطين، أن نقلوا ممتلكات بني أمية إليهم، ويشير البلاذري إلى دار الصّباغين التي بنيت في الرملة، بأنها صارت لورثة والي فلسطين العباسي صالح بن علي (ت: 151هـ/767م)، "لأنها قبضت مع أموال بني أمية"[2]. ويبدو أنهم ورثوا إلى جانبها قطائع وعمائر أخرى، وقد استمروا يملكونها بفلسطين حتى عهد الرشيد الذي أمر بنقلها إلى حلب ليكونوا بجانب أقاربهم، فلما تُوفي الرشيد تفرقوا في البلدان[3].

وهنا يرى الباحثان ضرورة دراسة ما كتبه برنارد الحكيم وتحليل خارطة أم الرصاص الفسيفسائية كونها تمثل مصادر هامة تعود إلى فترة الدراسة يعرضها الباحثان على الشكل الآتي:

1 الجند: مصطلح معناه الجيش النظامي، وأطلق على الأقسام الإدارية لبلاد الشام بعد الفتح الإسلامي، وهي جند: حمص، الأردن، دمشق، فلسطين، قنسرين. البلاذري، فتوح البلدان، ص145- 147؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.**ج1، ص103**؛ **هيوار، "جند"، دائرة المعارف الإ**سلامية، ج7، ص118 – 119.

2 البلاذري، أحمد بنيحيى(ت **:٢٧٩ه /٨٩٢م).** فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1403ه. ص149.

3 ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، ج1، ص127؛ فيصل عبد الله بني حمد، قطائع بني العباس ومنازلهم في العصر العباسي، ص13.

وصف فلسطين في الفترة العباسية عام 256هـ-870م من خلال رحلة برنارد الحكيم[1]

في فترة الخلافة العباسية ازداد عدد الحجاج المسيحيين الذين يفدون إلى فلسطين نتيجة الاتصالات الودية التي كرسها الخليفة هارون الرشيد (170-193هـ/786-809م) والإمبراطور شارلمان (742-814م)، ومنذ ذلك الوقت تمتع الحجاج بتسهيلات ومعاملة حسنة أثناء زيارتهم لفلسطين، ومن رحلات الحج المشهورة إلى القدس في ذلك العهد رحلة الراهب برنارد الحكيم الذي قام بها برفقة راهبين، فزار في طريقه مصر، ومنها توجه إلى فلسطين لأداء فريضة الحج.

بدأت رحلته التي دونها بشكل مقتضب من روما ثم الإسكندرية وعبر مصر وسيناء وصولاً فلسطين، وزار غزة والرملة وقرية عمواس والقدس ثم بيت لحم، وفى حديثه الأول عن القدس ذكر الزيارة " الأسطورية" التي قام بها الإمبراطور شارلمان(Charlemagne) وبنائه داراً لضيافة الحجاج ومكتبة[2]. تحدث في القدس عن عدد من المواقع الأثرية منها: مكان الجلجثة[3]، وكنيسة القيامة، وكنيسة السيدة مريم العذراء[4]. وزار العيزرية " بيثاني"، وكنيسة المهد في بيت لحم، قبل أن يعود مرة أخرى إلى القدس ثم غادر بعدها فلسطين.

فلسطين من خلال خارطة أم الرصاص (كنيسة القديس اسطيفانوس)

كنيسة القديس أسطفان أو اسطيفانيوس أو استيفان كنيسة أثرية، تقع في أم الرصاص (كاسترون ميفعا Castron Mefaa باللغة اليونانية)- الواقعة ضمن لواء الجيزة التابع لمحافظة العاصمة الأردنية عمان، على بعد (5) كم شرق ذيبان، كما تبعد (26) كم جنوب شرقي مدينة مادبا، و(60) كم جنوب مدينة عمان، على الرغم من وجود خلاف حول تأريخ خارطة أم الرصاص إلا أن هناك اجماعاً بين الدارسين حول تاريخ بناء كنيسة أم الرصاص في العصر العباسي وبالتحديد عام 785م تم التعرف على ذلك من خلال نقش كتابي باللغة اليونانية.

تُعد هذه الكنيسة من أهم الكنائس الأثرية في فلسطين والأردن، وسُجِّلت موقعاً تاريخيّاً هاماً في سجلات اليونسكو التي تمثل أبرز مواقع التراث الانساني العالمي[5]. وتتميز هذه الكنيسة بأرضية ضخمة مرصوفة بالفسيفساء لا تزال محفوظة، تصور هذه الفسيفساء - التي تزيد مساحتها عن (7.5) متر مربع - رسوماً لعدد من المدن البارزة التابعة للأرض المقدسة من جهتي نهر الأردن الشرقية والغربية، حيث تم وصف ثماني مدن في فلسطين[6] وتسع مدن في الأردن[7]، بالإضافة إلى عشر مدن في دلتا النيل في مصر.ومن أهم تلك المدن القدس وأم الرصاص التي اكتشفت فيها الأرضية الفسيفسائية عام 1968م. هذه التحفة المعمارية هي الثانية من نوعها بعد خارطة فسيفساء مادبا الشهيرة عالمياً التي تصور القدس والأراضي المقدسة[8] وهذا يعني أن الحركة العمرانية في فلسطين والأردن كانت قوية في بداية الحكم العباسي في القرن الثامن ميلادي[9].

---

1 Bernard the Wise, The itinerary of Bernard the Wise: (A.D. 870). (Palestine Pilgrims' Text Society,Unknown.P.P.3-11.

2 حكم شارلمان ملكاً للفرنجة من 768 – 814م. وإمبراطور من 800 – 814م. والمعلومة الواردة تحتاج إلى دراسة فى موقع آخر، ويبدو أن هذه الرحلة أسطورية، وأن هناك تحسناً ملموساً للعلاقة بين الخليفة هارون الرشيد وشارلمان، مهذه العلاقة سمحت لشارلمان بإرسال الصدقات والهبات إلى فلسطين حيث استخدمت في تعمير الكنائس وإنشاء نزل للحجاج ومكتبة كذلك.

Bernard the Wise, The itinerary of Bernard the Wise: (A.D. 870P.P.3-11;Einar Joranson, The Alleged Frankish Protectorate in Palestine, The American Historical Review,(1927) 32 (2): 241-261;

الدوري، عبد العزيز، العصر العباسي الأول، بغداد، 19456م، ص 149-165؛ بكللر، فرنسيس وليم، هارون الرشيد وشارلمان" دراسة في الصلات الدبلوماسية والسياسية، ترجمة محمود عبد الواحد محمود، ط1، دار الحكمة، بغداد، 2013م، ص 41-50.

3 الجلجثة: اسم يشير إلى مكان يقع خارج مدينة القدس القديمة، يعتقد بحسب الإنجيل أن يسوع صلب عنده. تعود تسمية هذه المنطقة إلى الآرامية جاجولثا بمعنى موقع الجمجمة. إنجيل متى، 33: 27.

4 كنيسة مريم: تقع في وادي قدرون شرق القدس، في مكان متوسط بين سلوان وجبل الزيتون وباب الأسباط وتحتوي الكنيسة على قبور "مريم البتول" ووالديها وكذلك قبر يوسف النجار، وبنيت بين 450- 457هـ. عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، ط5، مكتبة الأندلس، 1999م، القدس، ص526.

5 أم الرصاص في موسوعة ويكيبيديا:
https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A3%D9%85_%D8%A7%D9%84%D8%B1%D8%B5%D8%A7%D8%B5

6 القدس، نيابولس (نابلس)، سبسطية، اللد، قيسارية البحرية، بيت جبرين، عسقلان، غزة.

7 كاسترون ميفعا (أم الرصاص)، عمان، مادبا، حسبان، معان، الربة، الكرك، وقريتان صغيرتان وسط وجنوب الأردن.

8 Bahat, Dan, with Chaim T.Rubinstein, *The Illustrated atlas of Jerusalem,* Translated by: Shlomo Ketko,Jerusalem,1996.P. 86.

9: هذه المعلومات تم الحصول عليها من الكتب المذكورة آنفاً: Fr. M. –J. Lagrange, 1897, "La Mosaïque Géographique de Madaba", Revue Biblique. nº 2, Paris, pp. 165-184; Donner, H., 1992, The mosaic map of Madaba, Kok

أما فيما يتعلق بصورة مدينة القدس التي يمكن مشاهدتها في أول عمود على يسار خريطة أم الرصاص (شكل 1). إذ تظهر المباني الرئيسة في المدينة، فيظهر فيها باب العامود [1]يحيط به برجان اثنان، وخلف هذا الباب يوجد هناك مبّنى دائريٌ مدعمٌ بثلاثة أعمدة وهو كنيسة القيامة، وخلف البناء يوجد برج ضخم لم يتم التعرف عليه، ويبدو أنه مبنى تابع للكنيسة، وفي جانبيه شارعان مرصوفان يؤديان إلى وسط المدينة، وفي أعلى الصورة توجد كلمات باللغة اليونانية هي: Hagia Polisأي المدينة المقدسة[2] (شكل 1).

شكل (1): صورة لخارطة أم الرصاص الفسيفسائية (المصدر: Piccirillo. M., 1993, p. 219).

والآن يقوم الباحثان بعرض المادة العلمية ومناقشتها حول العمائر العباسية في فلسطين على النحو الآتي:

أولاً: المباني الدينية

1. إعمار المسجد الأقصى.

تعد جهود الإعمار في المسجد الأقصى من أول وأبين آثار العباسيين المعمارية والعمرانية في فلسطين خلال فترة الدراسة، وقد استهدفت تلك الجهود أبرز معلمين فيه (شكل 3)، وهما:

أ. الجامع القبلي (أشكال 2، 3، 4).

ففي أواخر العهد الأموي، وتحديداً في العام (130هـ/748م)، أصاب بلاد الشام زلزال عنيف، تركز في منطقة ساحل فلسطين[3]، أدى إلى قتل الآلاف، وتهدم بسببه الكثير من الكنائس والأديرة المحيطة ببيت المقدس[1]، كما تهدمت بسببه أجزاء كبيرة

Pharos publishing House, Kampen.; Piccirillo, M., 1993, "Umm Er-Rasas", en Stern, E., *et alii* (eds.) The new Encyclopedia of Archaeological Excavations in the Holy Land, vol. III, Jerusalem, pp. 1490-1493; Pichirrillo, M., 1993c, Madaba: Kanaes Wa Fosayfesa, Jerusalem, translated from Italian to arabic; Pichirrillo, M.; Alliata., 1999, *The Madaba Map 1897-1997,*Travelling though the Byzantine Umayyad period, Proceedings of the internacional conference held in Amman 7-9, 1997, Jerusalem, pp. 64.

1 Bahat, D; Rubinstein, C.T.The Illustrated atlas of Jerusalem. Translated by: Shlomo Ketko, Jerusalem, 1996.P. 86.

2.باب العمود أو باب دمشق، وهو المنفذ الرئيس لمدينة القدس من جهة الشمال. العارف، عارف، 1999، ص 433.

3 المنبجي، المنتخب من تاريخ المنبجي، ص105-106.

من المسجد الأقصى، حيث تهدمت الأروقة الشرقية والغربية التي كانت على جانبي الرواق الأوسط[2]، وتضررت كذلك قبة الصخرة[3].

ويبدو أن الأوضاع السيئة في خلافة مروان بن محمد (127-132هـ/744-750م)[4]، أعاقت إعادة إعمار المسجد الأقصى، فلم يكمل مروان المسيرة العمرانية لمن سبقه من خلفاء بني أمية وبقي المسجد على ما هو عليه حتى مجيء العباسيين.

وتشير الروايات أن الخليفة المنصور قَدِمَ إلى بيت المقدس زائراً في العام (141هـ/758م)، في طريق عودته من رحلة الحج[5]، وذكر المسعودي أن سبب الزيارة هو وفاء نذر كان عليه[6]، فاغتنم أهل بيت المقدس الزيارة ورفعوا إليه: "يا أمير المؤمنين، قد وقع شرقي المسجد وغربيه، زمان الرجفة سنة ثلاثين ومائة، فقالوا له: لو أمرت ببناء هذا المسجد وعمارته"[7]، فتعلل المنصور بعدم وجود كفاية من المال عنده في خزائنه، ولما كانت جميع أبواب المسجد الأقصى ملبسة بصفائح من الذهب والفضة، منذ عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، أمر المنصور بقلع هذه الصفائح فضربت دنانير ودراهم وأنفق عليه[8]، وانتهت أعمال الترميم في العام (154هـ/771م)[9].

وما ذُكِرَ من تعلل المنصور بعدم وجود المال الكافي في خزينة الدولة لإعادة بناء الأقصى، يدلل على ما كان معهوداً عنه من اقتصاد وشح وتدقيق في النفقات[10]، مع تضخم في الأموال المدخرة[11]، وهو سلوك غريب إذا علمنا أنه ابتدأ في بناء مدينة بغداد بعد وقت قصير، في عام (145هـ/762م)[12]، ولا شك أن تكلفة بناء المدينة كان يفوق إعمار الأقصى بكثير.

ويبدو أن المنصور أعاد بناء المسجد على مساحته الأولى في العهد الأموي، إذ لم تذكر المصادر أو التنقيبات الأثرية تعديلات أدخلها المنصور على هيئة المسجد، بخلاف ابنه المهدي.

ففي السنة الأولى من خلافة المهدي (158-169هـ/775-785م)، ضرب فلسطين زلزال[13]، أدى لهدم الإصلاحات التي أُجريت في عهد المنصور، يقول البشاري المقدسي: "جاءت زلزلة في دولة بني العباس فطرحت المغطى (المسجد المسقوف، أي الجامع القبلي)، إلا ما حول المحراب"[14]، وعندما زار المهدي بيت المقدس عام (163هـ/780م)، أعاد أهلها الطلب منه بإعادة بناء المسجد وإعماره[15]، ويبدو أن مستشاريه حذروه من ارتفاع تكلفة ذلك، وأن جميع ما في بيت المال لا يكفي برده إلى ما كان عليه، "فكتب إلى أمراء الأطراف وسائر القواد أن يبني كلٌ واحد رواقاً، فبنوه أوثق وأغلظ مما كان[16].

---

1 Theophanes (the Confessor). The Chronicle of Theophanes: an English translation of anni mundi6095-6305. University of Pennsylvania. USA.P. 112.

2 المقدسي، الشهاب، مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، ط1، 1994.ص176.

3 خالد الخالدي، "الزلازل في بلاد الشام (القرن 1-3هـ/7-19م)"، مجلة الجامعة الإسلامية، سلسلة الدراسات الإنسانية، مج 13، ع1، ص71.

4 أبو شمالة، شريف أمين محمد، فلسطين تحت الحكم العباسي المباشر (132-264هـ/750-778م)، الجامعة الإسلامية، غزة، رسالة ماجستير غير منشورة. 1432هـ/2011.ص194.

5 الطبري، أبو جعفر محمد بنجرير(ت:٣١٠ه /٩٢٢)تاريخالأمموالملوك، ج4، دارالكتبالعلمية، بيروت، ١٤٠٧ه. ص394؛ ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي (أبو الفرج)، 1415ه/1995 المنتظم الملوك والأمم، ج8، ص27؛ المرعشي ، الحسينبن محمد) ت :٤٢١ه /١٠٣٠م)، غرر السير، تحقيق:د .سهيلزكار، دارالفكر، بيروت، ط1، 1996. ص338.

6 المسعودي، أبو الحسن عليبن الحسينبنعلي (ت:٣٤٦ه /٩٥٧م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: مصطفى السيد بن أبي ليلة، المكتبة التوفيقية، م صر، د.ت. ج3، ص308.

7 الشهاب المقدسي، مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، ص176.

8 المصدر نفسه، ص176؛مجيرالدينالحنبلي، عبدالرحمنبنمحمدالعليمي) ت :٩٢٧ه /١٥٢١م .الأنسالجليلبتاريخالقدسو الخليل، تحقيق : عدنانيونسعبدالمجيدنباتة، مكتبةدنديس، عمان، ١٩٩٩م، ج1، ص281.

9 عفيف البهنسي، "فن العمارة والزخرفة الفلسطينية"، الموسوعة الفلسطينية، ق2، مج4، دمشق، 1984. ص801.

10 الإتليدي، محمود دياب، 1100ه/1689م، إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس، تحقيق: محمد أحمد عبد العزيز سالم، دار الكتب العالمية، بيروت، 2004. ص34؛ ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبدالله(ت٥٧١ه /١١٧٥م) تاريخ مدينة دمشق، تحقيق :محبالدينأبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، ج32، دارالفكر، بيروت، 1998م. ص308؛ الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت:٧٤٨ه /١٣٤٨م. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ج9، بيروت1987. ص466.

11 اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن أبي جعر العباسي(ت :٢٨٤ه /٨٩٧.) تاريخ اليعقوبي، دارصادر، بيروت، د.ت. ج2، ص387.

12 الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج4، ص459.

13 العارف، عارف، المفصل في تاريخ القدس، مطبعة المعارف، القدس، 1986. ص119.

14 البشاري المقدسي، محمد بن أحمد(ت :نحو٣٨٠ه/990م).أحسنالتقاسيمفيمعرفةالأقاليم، مطبعةبريل، ليدن، ١٨٧٧م.ص168.

15 الشهاب المقدسي، مثير الغرام، ص 176-177؛ مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج1، ص283.

16 البشاري المقدسي، أحسن التقاسيم، ص168.

ومن التغييرات الرئيسة التي أدخلها المهدي على الجامع القبلي زيادة عرضه، إذ رأى أن طول المسجد كبير بدرجة لا تناسب عرضه، فقال: "دق هذا المسجد وطال، وخلا من الرجال، انقصوا من طوله وزيدوا في عرضه"[1].

ويصف البشاري المقدسي المسجد الذي بناه المهدي، فيقول: "وللمغطى ستة وعشرون باباً؛ باب يقابل المحراب يسمى النحاس الأعظم مصفح بالصفر المذهب، لا يفتح مصراعه إلا رجل شديد الباع قوي الذراع، عن يمينه سبعة أبواب كبار في وسطها باب مصفح مذهب، وعلى اليسار مثلهن، ومن الشرق أحد عشر باباً سواذج (من دون زخارف)... وعلى وسط المغطى جمل عظيم خلف قبة حسنة، والسقوف كلها، إلا المؤخرة، ملبسة بشقاق الرصاص"[2].

وبالاعتماد على النص السابق، والاستكشافات الأثرية الحديثة التي أعدها الأثري كريزويل Creswell[3] يمكن أن نحدد معالم المسجد الذي بناه المهدي والتغيرات التي أحدثها بالشكل الآتي:

1. ارتكزت تغطية أجزاء من المسجد القبلي على دعامات أسطوانية، كان متوسط قطرها (90 سم)، وهي مبنية من مداميك حسب ما تبين بعد إزالة الطبقة الجصية التي تغطيها[4]، وهو ما أشار إليه البشاري المقدسي بقوله: "وما كان من الأساطين المشيدة فهو محدث"،[5] (أي في عهد المهدي)، كما ارتكز الجزء الآخر على أعمدة كاملة.
2. الرواق الأوسط والرواقان عن يمينه ويساره كانا بنفس العرض الحالي؛ لأن محاورهم محددة بالمداخل المركزية الثلاثة، واثنان منها لا يمكن أن يكونا أحدث من القرن (2هـ/8م).
3. تكون المسجد القبلي من خمسة عشر رواقاً تتجه جميعها بشكل عمودي على جدار القبلة.
4. كان الرواق الأوسط أوسعها، حيث بلغ عرضه (من المركز إلى المركز) 8.11 متراً.
5. بنيت سبعة أروقة عن يمين الرواق الأوسط وسبعة أخرى عن يساره، وكان عرض كل رواق منها (من المركز إلى المركز) 5.6 متراً.
6. أصبح عرض المسجد (من الشرق إلى الغرب) 102.8 متراً، وطوله (من الشمال إلى الجنوب) 69.2 متر، وبالتالي يكون قد حقق نسبة البناء المفضلة في العصر العباسي وهي (2:3).
7. استنتج كريزويل أن صفوف الأعمدة في مسجد المهدي (11 صفاً) مفترضاً أن عدد الأبواب في الجانب الشرقي تقابل صفوف الأعمدة تلك[6] (شكل 2، 4).
8. حملت الأسقف على حوامل خشبية ضخمة، واتخذ التسقيف الشكل الجملوني، وغطى السقف بألواح من الرصاص، وكان سقف الرواق الأوسط أكثر ارتفاعاً، وفتح في الجمالون الحامل للسقف مناور لإدخال الضوء.
9. أضيفت لأول مرة قبة خشبية مزدوجة معلقة بصفائح الرصاص ومزينة بالجبس من الداخل[7].

ويرى كريزويل، أنه ما من شك في التأثير الكبير لتصميم الأقصى على جامع قرطبة الذي أمر ببنائه عبد الرحمن الداخل عام (170هـ/787م)، ورغم الإضافات التي تمت عليه، إلا أنّ الجزء الأصلي لا يزال باقياً وهو مثل المسجد الأقصى، حيث يتكون من أروقة تتجه كلها بشكل عمودي على جدار القبلة، ويكون أوسطها أوسعها وبسقف هذه الأروقة أسقف جمالونية متوازية[8].

---

1 الشهاب المقدسي، مثير الغرام، ص177؛ مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج1، ص283.

2 البشاري المقدسي، أحسن التقاسيم، ص168-169.

3 عاش في الفترة بين 1879-1974: مؤرخ وآثاري إنجليزي، عمل على اكتشاف وتوثيق العمارة الإسلامية في مصر وفلسطين خلال الربع الأول من القرن العشرين، شغل منصب عضو مجلس أمناء المتحف الإسلامي في القدس 1947-1967، امتازت أعماله بالدقة البالغة والثقة العالية، نشرت معظمها في كتابيه: Early Muslim Architecture وThe Muslim Architecture of Egypt.

4 يستنتج كريزويل أن الدعامات الإسطوانية التي شيدت في عهد المهدي، بني على جزء منها المغطى (الجامع القبلي) الذي بناه الخليفة الفاطمي الظاهر، وأن جزء كبير من المسجد الحالي هو من تشييده. Creswell. A Short Account of Early Muslim Architecture. The American University in Cairo Press. Cairo, 1989.

5 البشاري المقدسي، أحسن التقاسيم، ص168.

6 Creswell, A short Account Muslim Architecture, p. 77.

7 عفيف البهنسي، "فن العمارة والزخرفة الفلسطينية"، الموسوعة الفلسطينية، ق2، مج4، ص801.

8 Creswell. *S.V.*"Architecture", Encyclopedia of Islam, vol. 1, Goitien, S.D.p. 618.

وفي عهد المأمون (198–218هـ/813–833م)، أضاف عبد الله بن طاهر (ت: 230هـ/844م)، والي مصر والشام آنذاك، رواقاً حُمِلَ على أعمدة من رخام ودعامات إسطوانية[1].

وقد ظل المسجد على حالته الموصوفة أعلاه حتى أصاب بيت المقدس زلزال في عام (406هـ/1015م) فتهدم ودخل مرحلة جديدة من الإعمار في العهد الفاطمي[2].

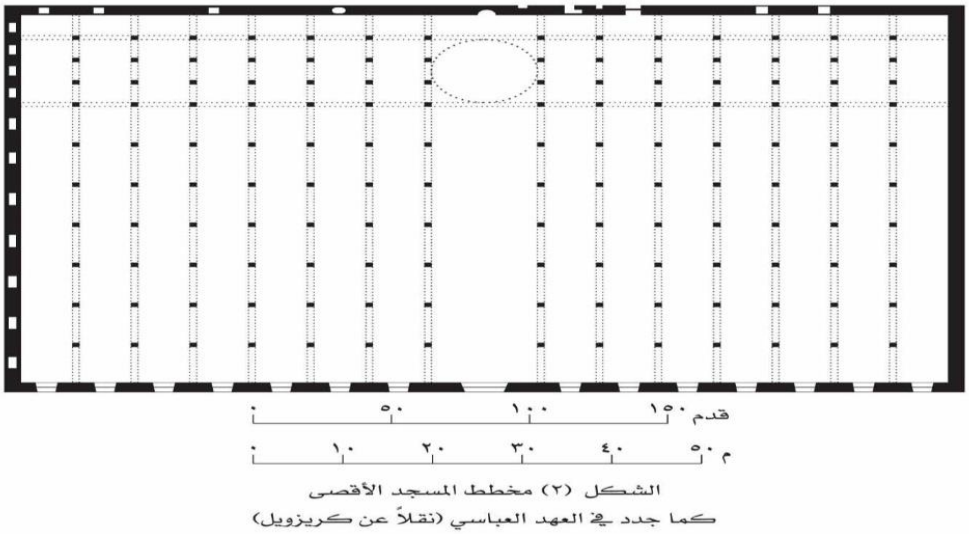

شكل (2): مخطط للمسجد الأقصى القبلي كما جدد في العصر العباسي (المصدر: كريزول).

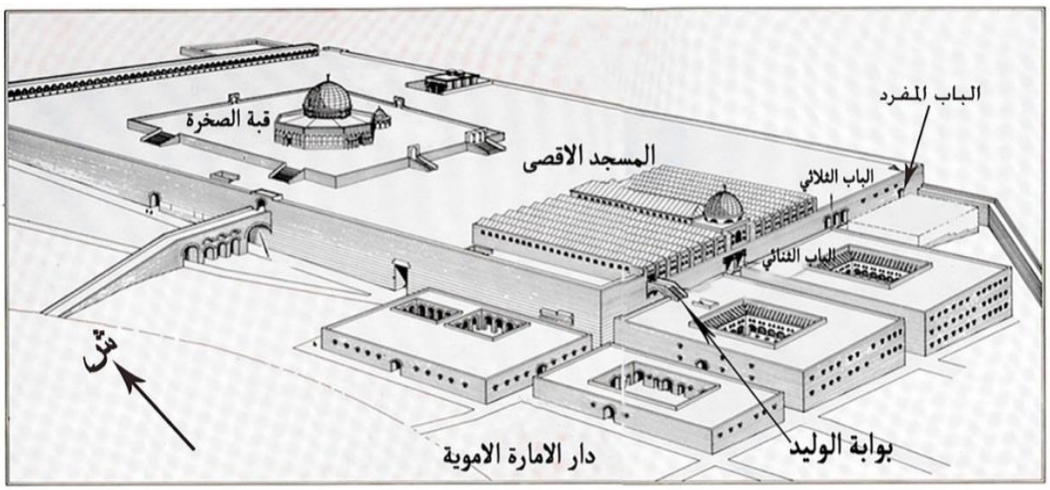

شكل (3): العمارة الأموية والعباسية في منطقة الحرم القدسي الشريف (المصدر: Bahat, D; Rubinstein, C. T. 1996. Pp.: 82-83)

1 البشاري المقدسي، أحسن التقاسيم، ص168-169.
2 عفيف البهنسي "العمارة والزخرفة"، الموسوعة الفلسطينية، ق2، مج4، ص802.

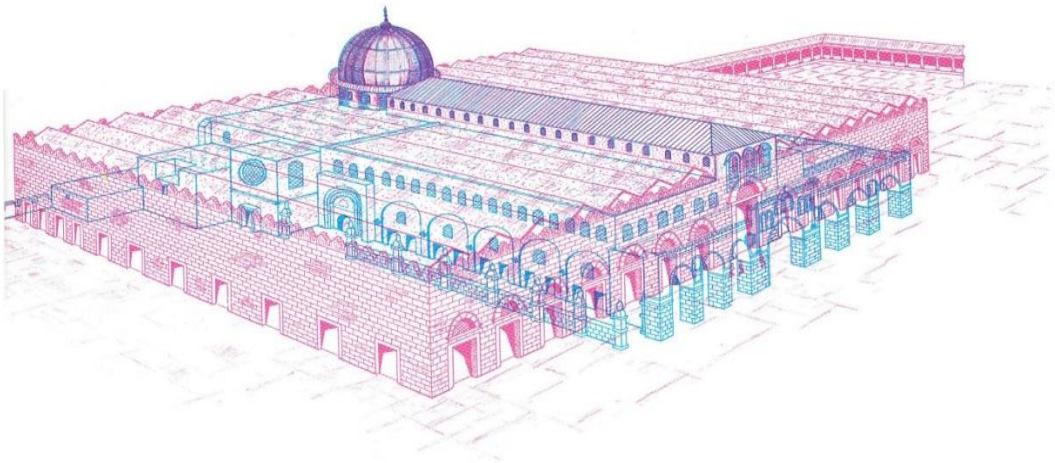

شكل (4): إعادة تصور للمراحل المعمارية التي مر بها المسجد الأقصى القبلي (المصدر Bahat, D; Rubinstein, C. T. :1996.P.: 87)

2. قبة الصخرة (شكل 13)

أ- تجديد عمارتها

وإلى جانب المسجد القبلي استمرت قبة الصخرة محافظة على عمارتها الأصلية، ومما يذكر أنها كانت محل إعجاب عند الخليفة المهدي نفسه، ففي طريقه نحو بيت المقدس عام (163هـ/780م)، دخل المسجد الأموي في دمشق، وأعجب به وبعمارته، فقال لكاتبه: "سبقنا بنو أمية في ثلاث...، بهذا البيت-يعني المسجد-لا أعلم على ظهر الأرض مثله أبداً، وبنبل الموالي، وبعمر بن عبد العزيز"، فلما أتى بيت المقدس ودخل قبة الصخرة، قال لكاتبه: "وهذه رابعة"[1].

ويبدو أن قبة الصخرة تأثرت بالزلزال التي أصاب بيت المقدس، لكن بدرجة أقل من العظمى، مما حدا بالخليفة المأمون (198-218هـ/813-833م)، أن يجري عليها بعض الترميمات.

فقد أثبتت الصفائح النحاسية التي وضعت بعتبة الباب العلوية، على الأبواب الأربعة الخارجية لمسجد الصخرة، أن ترميماً جرى في عهد المأمون عام (216هـ/830م)، وقد أشرف على ترميم القبة آنذاك أبواسحق المعتصم بن هارون الرشيد الذي تولى الخلافة بعد أخيه المأمون وعلى يد عامله صالح بن يحيى[2] في شهر ربيع آخر من نفس العام[3].

ويبدو أن فنياً قليل الخبرة والذكاء من الذين كانوا يتولون عملية الترميم أراد أن ينسب بناء المسجد للمأمون، فزور لوحة تأسيسية في القبة، إذ يستقر فوق الأعمدة التي يقوم عليها سقف المسجد حول الصخرة من الناحية الجنوبية الشرقية خط ضيق مصنوع من البلاط الأزرق، نقشت عليه بالأحرف الكوفية المذهبة الكلمات الآتية:

"بنى هذه القبة عبد الله عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين في سنة اثنتين وسبعين تقبل الله منه ورضى عنه آمين".

وقد غفل هذا الفني (كاتب العبارة) عن تغيير التاريخ فقد أبقى عام 72هـ وهو العام الذي أتم فيه عبد الملك بن مروان البناء، ولم يذكر العام الذي تم فيه الترميم، وقد وجد الفني المكان ضيقاً بحيث لا يتسع لاسم الخليفة المأمون وألقابه، فاضطر إلى كتابة ذلك بطريقة تخالف تلك التي كتبت بها الكلمات الأخرى، فظهرت الحروف التي كتب بها اسم المأمون مزدحمة يختلف شكلها عن الحروف التي سبقتها، ثم إن لون الفسيفساء التي جرى بها التحريف أشد سمرة من لون الفسيفساء الأصلية[4] (شكل 5، 6).

1 ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج2، ص247؛ ابنكثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي(ت :٧٧٤ه /١٣٧٢م) البداية والنهاية، ج9، مكتبة المعارف، بيروت، د.ت. ص173؛ مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج1، ص283.

2 غوشه، محمد هاشم، المسجد الأقصى المبارك: دليل أثري تاريخي للمعالم الإسلامية في المسجد الأقصى المبارك، القدس، 1428هـ/2007ص 18.

3 يوسف، حمد أحمد عبد الله، بيت المقدس من العهد الراشدي وحتى نهاية الدولة الأيوبية، دائرة الأوقاف والشؤون الإسلامية، القدس، 1982، ص 120.

4 عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص121.

وتخليداً للإصلاحات التي قام بها المأمون في قبة الصخرة، ضرب فلساً كتب على مداره "ضرب هذا الفلس بالقدس سنة سبع وعشرة ومائتين[1].

شكل (5): صورة لجزء من نقش المأمون (أو المأمور) في داخل قبة الصخرة (تصوير: المؤلفان).

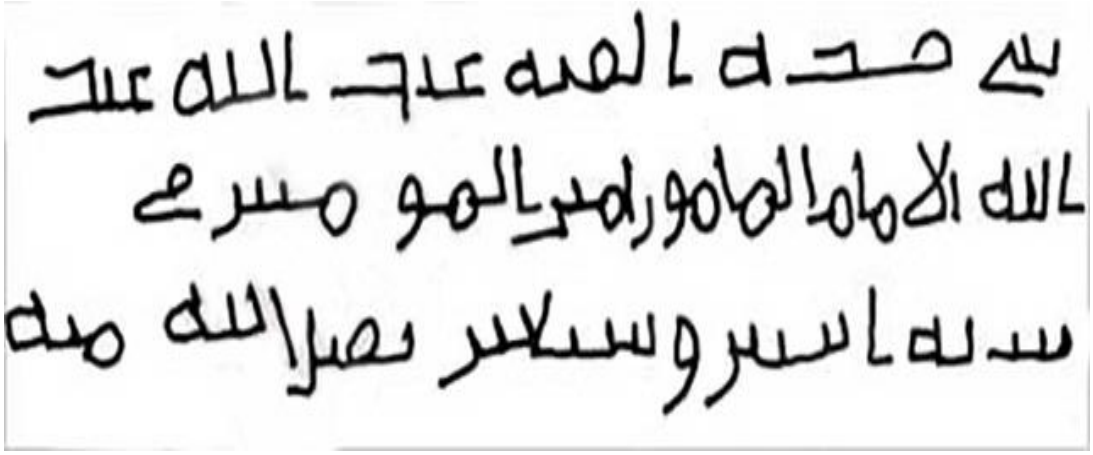

شكل (6): إعادة قراءة نقش المأمون (المصدر: عبد الله متولي..http://www.alraimedia.com)

ب- البوائك في ساحات الحرم الشريف

تُعدّ البوائك من أهم المباني العباسية في الحرم القدسي الشريف ومن أهمها البائكة الجنوبية الوسطى (شكل 7) التي أنشئت في العصر العباسي وجددت في العهد الفاطمي والعثماني، وتتكون من دعامتين حجريتين وبينهما ثلاثة أعمدة رخامية تعلوها أقواس حجرية مدببة الشكل وفي واجهتها الجنوبية مزولة شمسية يعود تاريخها إلى عام 1907 م. وهناك البائكة الشرقية التي بُنيت في العصر العباسي وجددت في الفترة الفاطمية (شكل 8). وتتكون من دعامتين حجريتين بينهما أربعة أعمدة رخامية تعلوها أقواس حجرية نصف دائرية[2].

وقد وردت إشارات في المصادر تفيد بإعمار بعض الأملاك الخاصة والكبيرة في فلسطين فترة الدراسة، فقد أقام الإمبراطور شارلمان Charlemagne (ت: 198هـ/814م) في بيت المقدس فنادق للحجاج الأوروبيين، ومكتبة وعدداً من بيوت الرهبان[3]. وللأسف لم ترصد لنا المصادر والاكتشافات الآثاريّة عن الكثير من العمائر الدينيّة في المدن الفلسطينيّة الأخرى، ومنها ما وثقته الإكتشافات الأثرية التي جرت في عام (1300هـ/1883م)، بعسقلان، على بناء مسجد فيها أمر بإنشائه الخليفة المهدي (158-169هـ/775-785م)[4] (الشكل 13).

1 العسلي، كامل، "مكانة القدس عربياً واسلامياً عبر التاريخ"، الموسوعة الفلسطينية، ق2، مج6، دمشق، 1984.ص1148.
2 العارف، قبة الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى المبارك، ص 104-144.
3Bernard The Wise: *The Voyage of the Bernard the Wise, Early Travels in Palestine*, (5) p.26.
4 مصطفى مراد الدباغ، "الموجز في تاريخ الدول العربية وعهودها".بلادنا فلسطين، دار الهدى، كفر قرع، 1997. ص192.

1.البائكة الشرقية.

تطل على المنحدرات الغربية لجبل الزيتون وتعد أكبر البوائك حول صحن الصخرة، حيث تتكون من ركبتين عظيمتين، وأربعة أعمدة أسطوانية رخامية الصناعة. ويصل ساحة المسجد الشرقية بصحن الصخرة اثنتان وعشرون درجة، وثلاث درجات أخريات، ارتفاعها 6.5م.

2. البائكة الجنوبية الوسطى

تقع في منتصف الحد الجنوبي لصحن قبة الصخرة الواقعة في وسط المسجد الأقصى المبارك، وربما تكون قد أنشئت أول مرة في العهد الأموي، ولكن من المؤكد أنها جددت في العهد العباسي، ثم الفاطمي والعثماني، ثم رممتها دائرة الأوقاف الإسلامية عام 1402هـ/1982م.وهي عبارة عن ثلاثة أعمدة أسطوانية في الوسط، تحفها عن اليمين واليسار ركبتان عظيمتان، ارتفاعهما 6.5م. ويصل ساحة المسجد بصحن الصخرة درج حجري مكوّن من عشرين درجةً.وفي الواجهة الجنوبية من هذه البائكة الجنوبية، توجد مزولة شمسية يستعين بها المصلون للتعرف على أوقات الصلوات، وكانت الاستعانة بها سابقا أوسع مما هي عليه اليوم، للاستعاضة عنها بساعات اليد، وهي من صنع مهندس المجلس الإسلامي الأعلى رشدي الإمام، وذلك في سنة 1907م.

شكل (7): صورة للبائكة الجنوبية الوسطي من منطقة مبنى قبة الصخرة (تصوير: المؤلفان)

شكل (8): صورة للبائكة الشرقية من منطقة مبنى قبة الصخرة (تصوير: المؤلفان)

3. الحرم الإبراهيمي في الخليل

خلال الفترة الزمنية التي يتناولها البحث الذي يفتقر إلى الكثير من المعلومات استمرّ اهتمام الخلفاء العباسيين في مدينة الخليل والمسجد الإبراهيمي، ففي بداية العهد العباسي، فتح الخليفة أبو عبد الله محمد المهدي عام 775 بابًا في السور الشمالي الشرقي بارتفاع ثلاثة أمتار ونصف، وتم تركيب باب حديدي له، وزيّن المسجدَ وفرشه بالسجاجيد، وأدخل على عمارته

إصلاحًا كبيرًا[1]. وفي أواخر القرن التاسع الميلادي تمّ بناء ما يُعرف "بالمُغطّى" وهو سقف ساحة المسجد الرئيسة، إضافة إلى بعض الغرف لإسكان الزوّار[2]. وفي عهد الخليفة المقتدر بالله (حَكَم 908 – 9322) بُني على قبر النبييوسف قبة[3](شكل 13). إلا أن هذه الإصلاحات والإضافات التي قام بها العباسيون في الحرم الإبراهيمي غير موجودة الآن. وكل ما نعرفه حول هذه الفترة الزمنية في هذا المسجد ما ذكر سابقاً في المصادر التاريخية.

ثانياً: المرافق العامّة (صِهريج الرملة)

لا تزودنا المصادر التاريخية والأثرية بالكثير من المرافق العامّة المنشأة في العصر العباسي، سوى ما دَوّنهُ كريزويل حول صِهريج الرملة.

وتعد أماكن خزن المياه أهم المرافق العامّة للتجمعات السكنية البعيدة عن الماء، وقد استخدمت لهذه الغاية الصهاريج، وهي عبارة عن خزان صناعي لتخزين المياه واستخدامها في وقت الحاجة إليها، والصهاريج نوعان: العام والخاص، حيث تخصص الصهاريج العامة لتخزين المياه وتوزيعه بالمدينة، فهي بهذا تشبه محطات المياه بالمدن في وقتنا الحاضر، أما الصهاريج الخاصة، فهي ما كانت مخصصة لخدمة منشأة بعينها، وهي عادة أصغر حجماً[4].

ومن المعرف أن الرملة قد عانت من قلة مصادر المياه، وخصوصاً في فصل الصيف، فلا ماء يجري فيها...(وهي) عميقة الآبار ومالحة[5].

ولذلك ليس من المستغرب أن يقوم سليمان بن عبد الملك عند البدء ببناء مدينة الرملة أن يهتم بالمنشآت المائية، فحفر قناة بردة وآباراً عدة، وبنى صهريجاً متوسطاً في دار الصباغين[6].

ومما يذكر في هذا المقام أن الخلفاء العباسيين قد استمروا في صرف النفقات التشغيلية لهذه المنشآت كما كان يفعل سلفهم من الأمويين مع بعض التغييرات الإجرائية في طريقة الإنفاق[7].

وقد دلت الإكتشافات الأثرية على بناء صهريج ماء ضخم في الرملة، يعود بتاريخه إلى العصر العباسي الأول، والدليل على ذلك اكتشاف نقش كوفي غائر داخل مستطيل كبير على الكسوة الجصية لواجهة المدخل الرئيس، يفيد بأن باني الصهريج هو "دينار مولى أمير المؤمنين" في (ذي الحجة 172هـ/ مايو 789م)،أي في عهد الرشيد (170–193هـ/786–808م)[8](شكل9).

وتبلغ أبعاد هذه النقش (120سم × 0.6سم)، نص النقش الكتابي بالخط الكوفي:

"بسم الله وبركاتة أمر أمير المؤمنين البناء فقد أطال الله أيامه في شهر حجة في السنة مائة واثنان وسبعون هجرية ".

هذا وقد كان كريزويل قد قدم قراءة غير كاملة للنقش الكتابي ومختلفة تماماً عن القراءة التي يقدمها الباحثون، إذ جاءت مختلفة نعرضها بشكل حرفي على النحو الآتي:

"...هذا من بين ما طلب من دينار أمير المؤمنين إقامته...وقد نفذ في ذي الحجة 172هـ (مايس 789م)"[9].

وربما يكون هذا الصهريج من آثار زُبيدة بنت جعفر بن منصور، زوج الرشيد وابنة عمه، فقد بَنت العديد من البرك والصهاريج والمنشآت المائيّة في طريق الحج بين بغداد ومكة، وقد ظلت هذه الصهاريج والمنشآت تعمل وتؤدي دورها حتى أواخر القرن (6هـ/12م) على الأقل، حيث ذكرها وأشاد بها ابن جبير في رحلته[10].

---

1 محمد ذياب أبو صالح، محمد ذياب، الخليل عربيّة إسلاميّة، الطبعة 2000. مطابع دار الأيتام الإسلاميّة. صفحات 72–92؛ناصرخسرو، أبو معين الدين ناصر خسرو القبادياني المروزي(ت :٤٨١ه /١٠٨٧م):سفرنامة، تحقيق: يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٨٣م. ص 70.

2 السيّد، علي أحمد، الخليل والحرم الإبراهيمي في عصر الحروب الصليبيّة، الطبعة 1998. دار الفكر العربي. صفحات 367–375.

3 أبو صالح، محمد ذياب، 2000، مرجع ورد ذكره، صفحات 72–92.

4 خالد عزب، كيف واجهت الحضارة الإسلامية مشكلة المياه، الفصل الرابع، من منشورات الأيسيسكو: www.isesco.org

5 البشاري المقدسي، أحسن التقاسيم، ص168-169.

6 البلاذري، فتوح البدان، ص149.

7 المصدر نفسه، ص149.

8Creswell: A Short Account of Early Muslim Architecture. P.285.

9 كريزويل، 1988، ص 306.

10ابن جبير، رحلة ابن جبير إلى الشام والحجاز والعراق، دار العراب: دار نور حوران، دمشق، 2014. ص185.

ويعرف صهريج الرملة محلياً باسم بئر العنيزية (بركة الأقواس، وبركة هيلين)، وهو من الآثار المعمارية المهمة في تاريخ العمارة الإسلامية[1]، وهو أقدم الصهاريج الأثرية الباقية في العالم الإسلامي وأكبرها[2].

ويقع هذا الصهريج على بعد نحو نصف ميل إلى الجنوب الغربي من الرملة (الشكل 13) على الطريق المؤدي بين يافا وبيت المقدس، وهو عبارة عن بئر محفورة في باطن الأرض يبلغ عمقه 8 أمتار، مربع الشكل غير منتظم، تتناقص من 24 متراً في الجانب الشمالي، إلى 5.20 متراً في الجانب الجنوبي، مكون من أربعة حوائط سائدة قوية، غطيّت بأكملها بطبقة صلبة من الأسمنت (الشكل 10).

وقد قسم الصهريج إلى ستة أروقة بواسطة خمس بائكات، تتكون كل بائكة منها من أربعة عقود في الاتجاه من الشرق إلى الغرب[3].

وحملت العقود على دعامات، أما العقود التي تحمل البائكات، فكلها مدببة الشكل، ويظهر أنها مكونة من مركزين يتراوح البعد بينهما من 7/1 إلى 5/1 من بحر العقد (اتساع فتحته)[4].

مخطط البئر

ويوجد درج في الركن الشمالي الشرقي للبئر، ملاصقاً للجدار الشمالي، ويهبط من الخارج إلى داخل البئر، ويرتكز هذا الدرج على عقدين يظهر أحدهما على شكل دعامة طائرة[5].

وشيد الصهريج من الحجارة المنتظمة المداميك واللحامات، ويربط بينها طبقة سميكة من المونة، أما العقود فبنيت من الدبش المترابط جيداً بالمونة[6].

وكان يتم سحب الماء عن طريق هذا الدرج، بالإضافة لأربع وعشرين فتحة علوية مثقوبة في الأقبية، أبعاد كل منها (55 × 55 سم)، بحيث يمكن لعدد مماثل من العمال أن يسحبوا الماء في الوقت نفسه من الداخل إلى أعلى بوساطة دلاء مربوطة بالحبال[7].

ويؤكد كريزويل أن العقود المدببة المستخدمة في بناء الصهريج تسبق مثيلتها في العمارة الأوروبية بقرون[8].

وفي الوقت الحالي، وبعد الإحتلال الصهيوني لفلسطين عام (1367هـ/1948م) تم تحويل صهريج الرملة لمعلم سياحي، يتم التجول فيه بالقوارب الصغيرة بعد أن يتم ملء ثلثه بالماء (الشكل 11).

وعليه، يمكن القول أن صهريج الرملة بمتانته وتحقيقه لوظيفته واستمراره لأكثر من اثني عشر قرناً رغم ما حل بالمدينة من زلزال، ليدلل على المهارة الكبيرة والقدرة العالية للحضارة الإسلامية في إيجاد حلول إبداعية لمواجهة الظروف الصعبة التي كانت تمر بها.

1Creswell. *S.V.*"Architecture", Encyclopaedia of Islam. Vol.1, p.618.

2 خالد عزب: كيف واجهت الحضارة الإسلامية مشكلة المياه، الفصل ال اربع، من منشو ارت الأيسيسكو .
http://www.isesco.org.ma/arabe/publications/Mochkil%20Miyah/P5.php

3Creswell. A Short Account of Early Muslim Architecture. P. 284.

4 سامح، كمال الدين، 1991، ص148.

5Creswell. Op. Cit.p.284.

6Ibid, p.284.

7 خالد عزب، كيف واجهت الحضارة الإسلامية مشكلة المياه، الفص الرابع، من منشورات الأيسيسكو.

8Creswell."Architecture", Encyclopaedia of Islam. Vol.1, p.618.

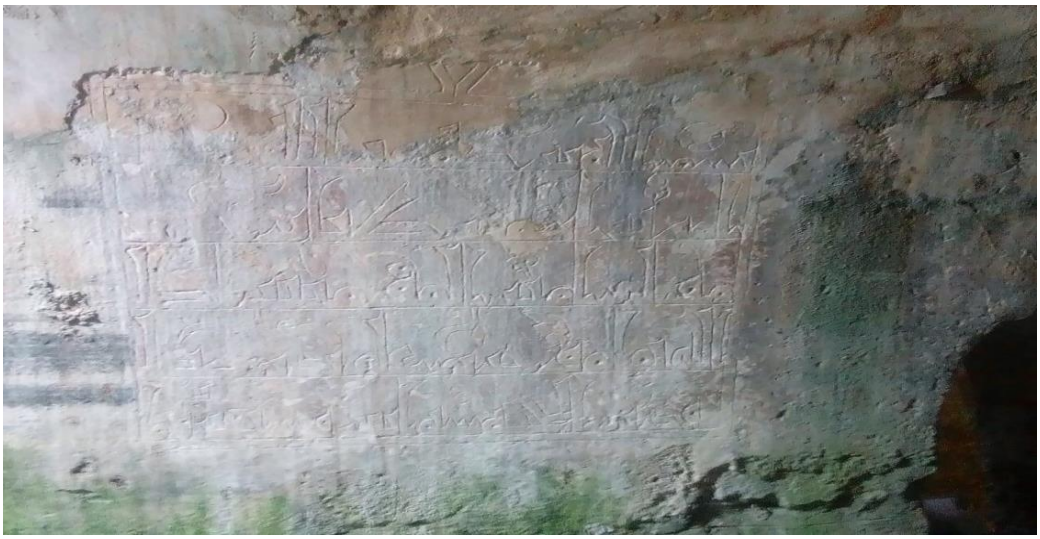

شكل (9): نقش كتابي بالخط الكوفي مكتوب على أحد الجدران الجبصية لمبنى صهريج الرملة يذكر فيه أن هارون الرشيد هو من قام ببناء هذا المبنى في شهر أيار من عام 789م (تصوير: محمد أبو سمرة)

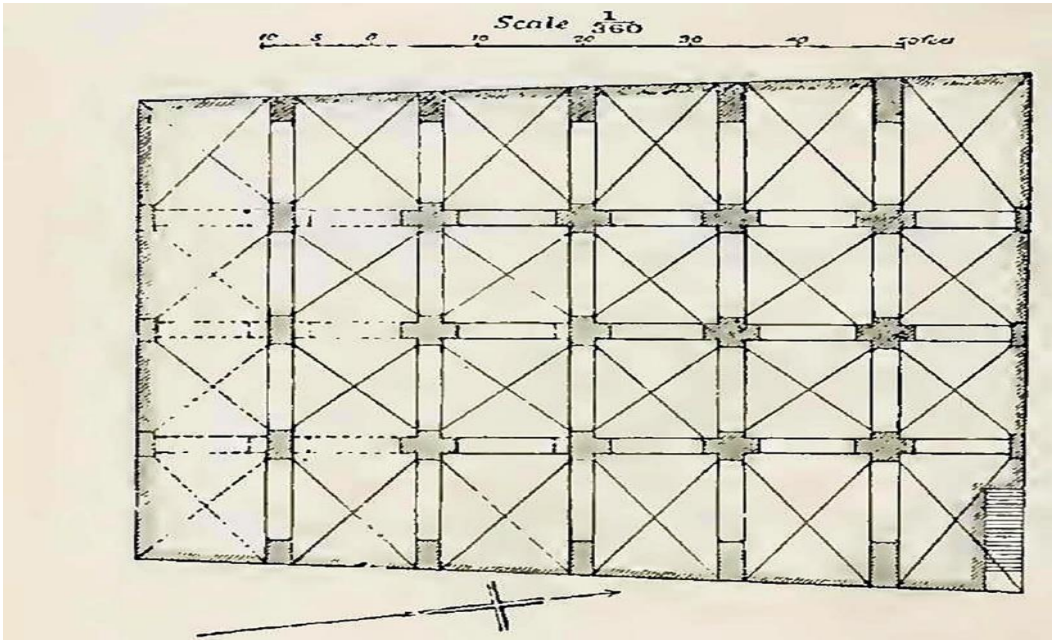

شكل(10): مخطط لبئر الرملة حسب جمعية صندوق استكشاف فلسطين (مجلد 2، ورقة 13، صفحة: 264)

شكل (11): صورة داخل بئر الرملة (العنيزية) (تصوير: محمد أبو سمرة)

ثالثاً: المباني الخاصة (القصور)

لا شك أن حركة الإعمار الخاصة التي قام بها الأفراد والجماعات لم تتوقف بمجيء العباسيين، ولكن تبقى المصادر والآثار الدالة على ذلك قليلة للغاية، ولا شك أن الزلازل المتكررة التي حلت بفلسطين كانت سبباً في ذلك، وتشير المصادر إلى حركة العمران التي قامت في المكان، واعتمدت بالأساس على الحجر الصخري المستخرج من مقاطع الرخام ببيت جبرين[1].

وكانت مقاطع الحجارة في بيت جبرين الوحيدة في فلسطين منذ بداية العهد الروماني، وإلى القرن (4هـ/10م)، فإن غالبية العمران المُشاهد في المواقع الأثرية المهمة في فلسطين، والمبني على الرخام اقتطع في حينه منها[2].

وأشار الرحالة ناصر خسرو أثناء زيارته لفلسطين في منتصف القرن (5هـ/11م) إلى انتشار الرخام في مدينة الرملة، واستخدامه في أعمال الزينة للبيوت الكبيرة والعادية على السواء، ولفت انتباهه طريقة تهذيبه وقصه، فضلاً عن تعدد أنواعه، فكان منه "الملمع والأخضر والأحمر والأسود والأبيض، ومن كل لون[3].

وفي عهد المأمون (198–218هـ/813–833م)، صار سعيد بن أبي السرح أميراً على فلسطين، "فاتخذ الدور والضياع"، وذلك بعد رجوعه من اليمن بأموال كثيرة[4]. وكذلك اتخذ أحمد بن المدبر لنفسه قصراً في الرملة وصف بأنه "كان جليلاً" وذلك في عهد الخليفة المتوكل (232–247هـ/846–861م)[5]، وقد كان ابن المدبر من رجالات الدولة العباسية وقد تولى خراج فلسطين، في عهد المهتدي (255–256هـ/869–870م)[6]. غير أن آثاره غير موجودة في الوقت الحاضر. ووردت كذلك إشارتان تفيدان أن أمير فلسطين عيسى بن شيخ (ت: 269هـ/882م)، قد شيد لنفسه قصراً بين الرملة واللد، وكان يقيم فيه[7]، كما أنه أقام حصناً خارج الرملة سماه الحسامي[8].

وأخيراً، لا بد من التركيز على دراسة القصر العباسي المكتشف في تل تعنك. وهو عبارة عن تل ومدينة كنعانية عربية ثم إسلامية لاحقاً، يقع في الطرف الشمالي الغربي لقرية تعنك الحالية وتبعد 8 كم تقريباً إلى شمال غرب مدينة جنين في الضفة الغربية، شمال فلسطين، و8 كم جنوب–شرق تل المتسلم (مجدو). إذ تبلغ مساحة تل تعنك حوالي 4.5 هيكتاراً. كان التل مأهولاً بالسكان البشري خلال المرحلتين الثانية والثالثة من العصر البرونزي القديم، ومحصناً في المرحلة الثالثة.بلغ عدد سكانها عام 2008 حوالي 1200 نسمة وتبلغ مساحتها حوالي 1 كم مربع[9] (شكل 12، 13).

قامت بعثة آثارية ألمانية بإشراف أرنست سيلين Ernest Sellin بإجراء تنقيبات آثارية في تل تعنك، غربي مدينة جنين، في عام 1984–1986. وتوصلت التنقيبات إلى اكتشاف مؤشرات ودلائل أولية لوجود قصر يعود إلى العصر العباسي[10]. غير أنَّ ذلك غَيّرُ مؤكد بسبب عدم استكمال عمليات التنقيب الأثري في التل. هذا بالإضافة إلى عدم نشر أية تقارير علمية حول المكتشفات الآثارية والدلائل التي تُثبت وجود قصر عباسي في هذا التل (أشكال 12، 13). على أمل في المستقبل أن يتم دراسة المكتشفات الأثرية التي ربما قد تكون ضائعة للتعرف إلى طبيعة القصر وتاريخه.

1 البشاري المقدسي: أحسن التقاسيم، ص184.
2 عرار، عبد العزيز، قرية بيت جبرين، منشورات جامعة بير زيت، فلسطين، 1995. ص 61.
3 خسرو، ناصر، سفر نامة، ص54.
4 اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج2، 456؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج5، ص163.
5 ناصر خسرو، ناصر، سفر نامة، ص 54.
6 المسعودي، مروج الذهب، ج4، ص 177.
7 اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج2، ص 501.
8 المصدر نفسه، ج2، ص 502.
9 الهودلية، صلاح، "أنماط الاستقرار خلال العصر البرونزي القديم في فلسطين"، مجلة جامعة النجاح للعوم الإنسانية، 2004 المجلد 18، الإصدار 2. عمادة البحث العلمي، جامعة النجاح الوطنية. الصفحات: 483-512.
10 Winter, D.P Israel Handbook: with the Palestinian Authority Areas.P. 644.
69. Abu Alsaud, L. “Clarification on the site at Byzantine and Early Islamic Khirbet Dayr-Sharaf, Neapolis, Palestine”. Cuadernos de Prehistoria y Arqueologia. Num. 42. Universidad Autonoma de Madrid, 2016, pp. 209-2018; Abusood, L. 2007. Estudio arqueológico del urbanismo y arquitectura antiguos de la ciudad de Neapolis (Nablus/Territorios Palestinos), Universidad de Salamanca. (Tesis Doctoral, dir. Jesús Liz Guiral). Pp: 25-28.

شكل (12): صورة عامة لموقع تل تعنك، الصورة مأخوذة من الجهة الغربية من التل (المصدر: تصوير المؤلفان)

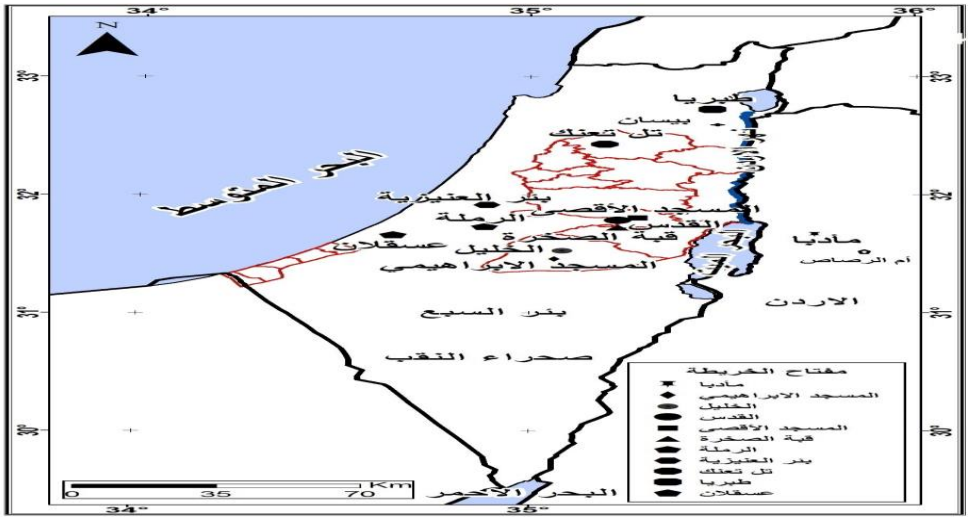

شكل (13): خارطة فلسطين التاريخية حيث يظهر فيها أسماء المدن والبلدات التي سكنها العباسيون وأعادوا تجديد مبانيها (المصدر: محمد برقان)

الخاتمة:

انهارت الخلافة الأموية في دمشق عام 132هـ/ 732م لتحلّ محلّها الخلافة العباسية التي اتخذت من بغداد عاصمة لها، وقد حاول العباسيّون أن يظهروا اهتمامهم بفلسطين ومدينتها المقدسة ليجاروا الأمويين في ذلك؛ فقد قام الخليفة الثاني بزيارة بيت المقدس عند عودته من أداء فريضة الحج عام 140هـ/748م كما ذكر الطبري في كتابه تاريخ الأمم والملوك في الجزء الثالث في الصفحة 272. ثم زارها مرة ثانية عام 154هـ/761م.

خلال هذه الفترة أصابت فلسطين هزتان أرضيتان، كان المسجد الأقصى من بين الأماكن التي أصابتها، فقام المأمون بإصلاحات كبيرة بعد أن هدمت الأجزاء الشرقية والغربية. وأمر المهدي عام 163هـ بإجراء إصلاحات كبيرة الأمر الذي دعا المقدسيين إلى الإشادة بها، وقام المأمون 198-218هـ/813-833م ببناء الأبواب الشرقية والشمالية للحرم الشريف. هذا بالإضافة إلى بناء البوائك الشرقية والجنوبية الوسطى. ومن الإنجازات العمرانية للعباسيين ما قام به هارون الرشيد عام 789م حين أمر ببناء خزّان ماء كبير في مدينة الرملة يتكون من ست غرف ضخمة تقوم سقوفها فوق أقواس مدببّة، وللخزان أربع وعشرون فتحة بإعلاه لانتشال الماء، ويعرف أهل الرملة اليوم هذا الخزان باسم "بئر العنيزية" البناء العباسي الوحيد في فلسطين. وتم التعرف إلى وجود مسجد عباسي في مدينة عسقلان وطبريا وربما قصر في تل تعنك (شكل 13).

نلاحظ مما سبق أن إنجازات العباسيين كانت محدودة ولا يمكن أن نقارنها بتلك الإنجازات الكبيرة التي تمت على أيدي الأمويين، ويمكن أن نعزو ذلك إلى عوامل عدة منها أنه:

1. لم يعد أمر سوريا وفلسطين من شواغل خلفاء بني العباس.
2. رافق التغّير السياسي تحول الطرق التجاريّة بين بلاد الشام والشرق الأقصى تدريجياً إلى وادي الرافدين، وفقدت بلاد الشام مكانتها الممتازة التي كانت لها في عهد الدولة الأموية، ولم يتوان أهلها عن التعبير عن تذمرهم ومعارضتهم بالسيف والبيان، وأخذ موقفهم يتطور من سيء إلى أسوأ، حتى تركهم محرومين من مناصب الدولة.
3. انشغل العبّاسيون بصورة دائمة بصد الخطر البيزنطي على الثغور الإسلامية.
4. داخلياً كان للصراع بشأن الحكم بين العرب من جهة، وبين الفرس ثم الأتراك من جهة أخرى، أثر في فقدان هيبة الحكم ومركز الخلافة الأمر الذي قلل من نشاطات الخلفاء العباسيين في فلسطين.

وأخيراً، يعتقد الباحثان أنّه كان هناك نوع من التسامح الديني متبعاً لدى الخلفاء العباسيين تجاه النصارى والأقليات الدينية الأخرى في تلك الفترة. إن اكتشات أرضيات فسيفسائية لكنائس وكنس سامرية69في فلسطين والأردن أفضل دليل على ذلك.

الرقم	النمط المعماري	المدينة	تاريخ البناء	ملحوظات
1	المسجد القبلي/المسجد الأقصى	القدس	المهدي	توسعات وتجديد المبنى
2	قبة الصخرة	القدس	المأمون	تجديد قبة الصخرة
3	البائكة الجنوبية الوسطى	القدس		---
4	البائكة الشرقية	القدس		---
5	بئر العنيزية	الرملة	هارون الرشيد 789م	---
6	تل تعنك	جنين	العصر العباسي	ضياع الدلائل الأثرية. إضافة إلى الحاجة إلى تفسير المكتشفات الأثرية ودراستها
7	مسجد	عسقلان	العصر العباسي	غير مؤكد
8	مسجد	طبريا	العصر العباسي	غير مؤكد
9	المسجد الإبراهيمي	الخليل	العصر العباسي	---
10	خارطة كنيسة أم الرصاص الفسيفسائية	مادبا: أم الرصاص	عام 785م	8 في فلسطين، 9 شرق نهر الأردن، 10 في مصر ودلتا النيل.

جدول يبين فيه أهم العمائر في العصر العباسي الأول. إعداد (الباحثان)